الصوت والصمت

قصة بقلم سليمان فياض

انفضّ المعزى ، وانقطع العزاء ، وصارا وحيدين .

اغلق طه النوافذ الخشبية ، الصدئة المحاور . نادى على تفيده لتعود معه ، ناداها برقة ، ثم بتوسل ، وهو واقف عند الباب والمفتاح في يده . لم يسمع منها ردا ، ولم تصدر عنها نأمة . رق قلبه لها ، ورجع ليأتي بها . دخل غرفة واخرى ، والفانوس في يده . تواثبت على ساقيه البراغيث ، وتقافزت حوله الفئران ، مختبئة في الشقوق ، وتقطعت حول وجهه وعنقه خيوط العنكبوت في البيت المهجور . لم يعثر لها على اثر . كيف تذهب وتتركه وحيدا في وقت محنته صرخ بغضب مناديا عليها . سقطت نهاية الصوت في صمت اصم . امتصته اتربة البيت المهجور ، ورطوبة الجدران . عاود النداء مذعورا . فكر انها تهجره الان ، غاضبة ، في لوعة الحزن . فكر ان الحمامة لا تهجر وليفها حين يخطف الموت صغيرهما ، تضم جناحها الى جناحه ، ويهدلان في صمت . همس برقة مناديا دون صوت . عاد يدير الفانوس حوله في رعب . يجري متعثرا في قدميه . يعاود النظر في اركان الغرف . ينقب في ساحة البيت . يشك في عينيه . حدث نفسه :

« اين ذهبت هذه المرأة ؟ كانت معي هنا ، تجلس بجانبي ، حزينة مثلي ، بعد انذهبالكل : الرجال والنسوة ، الاباعد والاقارب . لا تنبس بحرف ، تدفن راسها في عبها » .

زعق ثانية مناديا في لوعة . من جديد ، ابتلع الصمت الصوت ، هتف في سره :

« انا مثلك ملتاع ، ليس الان يا تفيده . عاد الكل الى بيته ، ولم يبق لي سوى صدرك »

دار بخاطره انها تختفي منه بحزنها ، تحت الكنبة الطويلة العارية ، واتاها النوم ، واثقلها الحزن ، شغل عنها بعد ان رحل الكل ، فانزلقت ، وتمددت لتغفو ، اسرع الى الكنبة ، وضع الفانوس ، لترى نوره ، وناداها ، انبطح على بطنه ، وحرك الفانوس يمنة ويسرة . مد يده وحركها في كل اتجاه . نهض حائرا . فكر انها ذهبت الى بيت اهلها . لم ؟ عمرها كان قصيرا ، وما باليد حيلة .

« ناداها اجلها ، وكنت انا السبب ، بل الواسطة ، نفذ قضاء الله فيها وفيّ . قال لنا الشيخ ، وانت شاردة لا تبكي ، ان هذه هي ارادة الله ، ان تخرج في تلك الساعة من الليل ، وان ابعث بها انا ، وهي وحيدتنا ، الى القرية لتلقى اجلها . قال لنا الشيخ ، ان ملك الموت ، جاء الى سليمان الحكيم ، ونظر الى احد الجالسين معه وتعجب . سأله سليمان : فيم تعجبك ايها الملك الكريم ؟ فقال له ملك الموت : لان هذا الرجل يجلس معك هنا ، وقد حان اجله في الهند بعد دقيقتين . رأى الرجل ملك الموت وعرفه ، فسأل سليمان الحكيم عن سر مجيئه الان . فقال له سليمان : انه جاء ليقبض روحك ، ويسترد الى الله سره الالهي فيك . فزع الرجل المقضي عليه بالموت ، وتوسل الى سليمان الحكيم ، ان يسخر له الريح لتحمله بعيدا ، الى حيث يهرب من ملك الموت . فحقق له النبي الكريم رجاءه . وذهبت به الريح الى حيث اراد وطلب ، الى بلاد السند والهند . هناك وجد ملك الموت في انتظاره ، يقول له : نعم . قدر الله لك في كتابك عنده، ان تموت هنا ، وانت هارب من الموت ، في ذلك المكان ، في تلك اللحظة آمنت بالله يا تفيده . فلم تغضبين مني ، ولم اكن سوى واسطة ، كأي شيء في ملكه الواسع ، لاي شيء في كونه المجهول ؟ ».

تحرك مغادرا البيت . ادخل المفتاح في ثقب الباب ، وجذبه وراءه ، ادار المفتاح بصعوبة ، واغلق الباب . فكر انها ربما كانت ما تزال في البيت . طمأن نفسه بأنها ستعبر سطح البيت الى سطوح الجيران . فكر انها الان في بيت اهلها . فكر ان يذهب ويعود بها . لكن ، سيقول رجال القرية عنه انه رجل بلا كرامة . سيقول أهلها بعيونهم قبل السنتهم ، انه قتل ابنها ، ثم ابنتها ، وجاء اليهم . يا لجسارته !

« فلتأت هي ، او لتبق الى الابد . وانا ؟ لمن أزرع الارض اذن ؟ دعها الان يا رجل . دعها في بيت اهلها ، تخفف عن نفسها . يواسونها تبكي ، وتنسى » .

التفت بجذعه مغادرا البيت ، مهجورا بين البيوت العامرة ، كما كان . نام الكل ، وأمست الكلاب تنبح ، والضفادع تنق ، والخفافيش تطير . والبوم يتربص بالعصافير ، (كما تربص الموت بوردة) ، والنجوم تتألق بالوميض في السماء البعيدة ، (كما كانت منذ الازل). راح يدب في الطريق مغادرا القرية . لم يبق معه أحد ، لانه هجرهم، ولم يبق معهم . واسوه ثم ذهبوا ، يعينونه في الجمع والحصاد ثم يذهبون . لا يأتي احدهم ليسمر معه في بيت المزارع ، لا يأتي هو اليهم ليسمر معهم على المصاطب . فكر ، عندما بلغ قنطرة المصرف ، انه سيبيت وحده ، في البيت الوحيد ، بين المزارع ، والليلة باردة سيبقى ساهرا ينصت لاصوات الليل ، يرتعد من الخوف والترقب ،

تراوده اشباح الموتى ، وذكريات احمد ووردة . (حدث ذلك مرارا ، كلما ذهبت لتبيت ليلة عند أهلها) . وجودها معه يؤنسه ، ويطـرد وحشة الليل . خطر ببالـه ان يزورها حيث ترقد .

سار مع الجسر . يتأرجح نور الفانوس ، في عتمة الليـل ، بظلاله وظلال عودهالفارع الذي انحنىظهره ، وظلال الاشجـار مـن حولـه ، والنباتات ، والحفر ، واكوام الطريق الذي مزقته الفئوس ، ظـلال سريعة ، متقاطعة ، باهتة ، كالدوار ، زكمت أنفه روائح المياه العطنة ، ورائحة جيفة طافية لحمار ، فوق المياه الراكدة ، ونهق حمار بعيد ، في توق للمضاجعة . كـاد ان يضحك .

« فرح هو بأنه حي . وغدا سيأتي الموت ، طال الزمن او قصر ، ويلقى بك في هذه المياه ، انت ، والجنس الذي يحرك في عمـود ظهـرك » .

أفاق لنفسه عند المقابر ، قريبا منمقبرة ولديه . خطـر ببالـه ان يظل الليلة هنا ، بجوارهما ، يؤنسهما ، ويخلو الى نفسه . اسرع كلب نحوه . دهش لمرآه وقد نسيه ، بنوح لم يزل . تهتز ظلاله ، مـع ارتعاش انينه ، في نور الفانوس ، كأنه يرقص . أوشك ان يبكي معه وينوح . فكر انه بهيمة ، وانه هو انسان ، له قلب وعقل ، وفي صدره ايمان . فكيف ينوح كالبهيمة ؟ انحنى على كلبه ، وربت على رأسه وعنقه مرارا ، مواسيا ، تمسح الكلب في ساعده بظهـره وثنى ساقيـه الخلفيتين تحته ، واذناه مدلاتان . راح يزوم بألم حقيقي ، كصوت ذئب جائع ، سأل الكلب :

ـ هل ستنساها يوما ؟ تنسى صاحبتك التي كانت تقدم لك طعامها؟ لكن ، الانسان ينسى ، فلم لا تنسى أنت ؟!

زام الكلب نائحا ، فنهض ، ونهض الكلب معه . سار أمامه الى القبر . سمع تنهيدة قريبة ، فقف" شعر رأسه تحت لبدته ، وصـاح في سره بالبسملة . وهتف :

ـ انس أم جن ؟.. عليك السلام يا من تكون !

سمع صوتها :

ـ انا يا طه . لا تخف . عليك الامان .

بدا صوتها ، غريبا ، كأنه يأتي من اعماق بعيدة ، حزينا ، كأنها تشاركه اساه ، أليفا ، كما عرفه دائما .

« لعلها جنية صديقة للموتى ، لابنتك ، مسلمة مثلك ، ربما كانت قرينة ابنتك ، اختها التي تحت الارض »

همس في خوف وأمل :

ـ من أنت ؟

ـ أنا تفيده يا طه .

شهق . ثم شك . حرك يده بالفانوس ليراها . رآها جالسـة بجوار القبر ، ملتصقة به ، بكل صدرها ، حانية عليه ، كأنما لتدفئه ، تضع كفا فوق كف ، فوق زاويته ، وخدهـا مسند الى الكفين ،وثيابها الرقيقة ملتصقة بها ، تعبث النسمة الباردة باطرافه . لاذ الكلب بهـا مطمئنا . احس بالامن لحركته نحوها . لو لم تكن هي ، لما أمن الكلب . زفر مستريحا ، وارتج لاجلها جسده . انتفض مرتعدا بمودة . احس بقشعريرة باردة تجتاحه . تقلص قلبه وتمدد فـي صدره مضطربـا . فارقه تصلبه المتخشب ، فاسرع اليها ، وضع الفانوس فوق ظهر القبر فتضاءلت الظلال ، أمسك بكتفها ، ويديها ، لينهضها ، انكمشت في نفسها مستعصية عليه . توسل اليها :

ـ كفي . الدنيا باردة ، وهي مستريحة الان ، دافئة في الداخل.

ـ لا . دعني . اجلس معي ، لنؤنسها في قبرها .

صاح بها :

ـ كفى يا امرأة .

ـ اسكت . اخفض صوتك ، لا تزعجها الان ، دعها نائمة .

ـ الله يؤنسها الان . رحمته معهـا يا تفيده . ماتت شهيدة .

« ماتت وهي تبر لك بحقك ، في جوف الليل البارد ، والماء كالثلج فليغفر لنا الله » .

ـ يا امرأة .

ـ صوتك مرتفع !.. هس !

« ستجن هذه المرأة . لا . لن تذهبي أنت الاخرى »

اشارت الى الكلب . قالت بعتاب :

ـ وجدته هنا !

انهضها بقوة قادرة ، وثب الكلب يجذبها معه من ثيابها ، ياخذها بعيدا عن القبر . صاحت بهما :

ـ الليلة فقط ، هذه اول ليلة لها هنا .

« حين يغير الانسان منامته يجفوه النوم » .

راح يهدهدها برقـة :

ـ هي نائمة الان . في النهار ، سنأتي اليها حين تستيقـظ ، انظري الى الكلب .

« انه صديقها ، ويعرف عنها كل شيء ، الان . انه يراهـا ، نائمة تحلم ، تمرح بروحها بين بساتين الجنة . سليه ، انه حيـوان أعجم ، مرفوع عنه الحجاب » .

ـ هيا بنـا .

استكانت له . أحست بالبرد . التصقت به ، فتح عباءتـه بساعده ، واخذهـا تحت يمينه . فرد عوده ، ليتسع جانبه لها ،وغطاها حتى الرأس بعباءته ، وفرد كفه الممسك بطرف العباءة ، على كتفها ، فسكنت ، ومد يده الاخرى ، وقبض على علاقة الفانوس ، رفعه مـن فوق ظهر القبر ، فعادت الظلال تتأرجح . مشى الكلب امامهما انبعثت حياة الليل في المقابر . زكمته رائحة الموت الباردة ، رنين الصمـت الاجوف ، وهي تنعطف من طرقة القبر ، التفتت اليـه ، ونادته مـن وراء العباءة ، رعقت تحت اذنه مودعة . ارتعد لندائها .نبح الكلب . ذاب قلبه أسى لها . ود لو تبكي . لو يجعلها تبكي لتفرج عن نفسها ، لم تبك منذ يوم وليلة . بكى . ناح الكلب . ليتها تبكي ، صاحت به :

ـ لا تبك . أنت رجل .

ـ لي قلب يا تفيده .

ـ أنت رجل .

تحاورا بلا صوت :

« لا . لن أنسى ورده » .

« فقدها يجل عن البكاء ، ما فائدة البكاء . » .

« أخاف عليك » .

« سيذهب البكاء بالحزن ، مع الدموع ، وتجف الدموع ، ويأتي النسيـان » .

« أراحها الموت من دنيانا ، تنام سعيدة في قبرها » .

« قلبي اصبح قبرها » .

« لن تنام في قبرين يا تفيده » .

« انها تنام الان فيهما » .

وقفا على حافة الطريق الزراعي الواسع ، المترب ، الرطب ، قفز الكلب منبها : الجسر قد رفع . (في الصباح رفع البيلي جسر الطين اليابس من القناة ، لتجري المياه الى ارضه) ، وعى الاثنان اشارته. فخرجت من تحت ابطه ، لتقفز الى الحافة الاخرى ، أشار لها طه لتنتظر . وقفز هو . مد لها يده ، ومدت له يدها .تماسكت كفاهما. في ذات اللحظة ، كانت تقفز نحوه ، وكان يجذبها اليه ، استدارا . لم يكن ممكنا ان يسيرا معا على الجسر الضيق ، المتعامد ، للقناة الاخرى ، خلع عباءته .

ـ الدنيا باردة عليك .

ـ لا . ثيابك رقيقة .

دثرها بالعباءة حتى رأسها ، لملمت أطرافها كي لا تصل الى الارض وتتسخ ، وتتعثر هي . ناولها الفانوس لتنير طريق الجسر لنفسها . سبقها الكلب ، وتبعها هو . تتموج الارض حولهما ، بخفق الهواء ، وانحناءة أعواد الزرع ، وتأرجح الظلال . تنق الضفادع ، تلتمع أوراق عش الغراب الفوسفورية ، كالعيون ، على صفحة المياه الراكدة ، في القناة ، تصر جنادب الارض السوداء التي لا ترى ، تمرق حيوانات الليل الصغيرة ، كالقطط ، قافزة من جسر الى جسر ، وتختفي بين الاعواد ، تتوقف لحظة ، وتلمح الكلب في دهشة ، ثم تغيب عن الاعين . لا ينبحها الكلب الان . لا يجاوب نقيق الضفادع . أو صرير الجنادب بالنباح ، لا يزعق في التماعات اوراق عش الغراب ، مدعيا الهجوم بساقيه ، وجسمه يتراجع فوقهما من الخوف ، تحس برعدة الخوف ، تكاد تضحك على الكلب . حتى الكلب يخاف الليل ، وخلاء المزارع الممتدة ، ويقهر خوفه في كل لحظة ، ويظل الليل بطوله ساهرا يرتعد وينبح ، يهاجم اشباح الليل في جبن مرعش . ما زال يخاف الليل . يقلص ذيله الازعر ، ويشد أذنيه القصيرتين فوق رأسه الاكلح لا ينبح . حزنه على صاحبته اقوى من خوفه الان ، خرجت من بيت المزارع ، لتبول ، وجسدها ملتهب من حرارة الحمى . صرخت ، وانحبست فيها المياه . رأته : المارد . المارد الليل . عريضا عريضا ، مرتفعا الى السماء ، شاهق الارتفاع . صرخت ، فأسرع اليها طه جاءها بكوز الشاي القديم الصدىء لتبول فيه . ظلت وقتا طويلا حتى فعلت . راح يتهمها بانها محمومة ، فتخايل لها مارد في الظلام . لكنها رأته . وتعلم انه يصدقها . كان يصدقها . ظل يقرأ آية الكرسي في سره ليصرف المارد ، أحكم اغلاق الباب والنوافذ . في الصباح ، كان وجهه ، كوجهها ، أصفر ، كالليمون ، بات ليلته خائفا مثلها ، لكنه يكابر ، رفض ان يعترف لها بما رأت . رفض أن يهجر البيت النائي ، ويعود الى بيت القرية المهجور .

« والان ؟ بعد أن غرقت وردة ؟ لعل المارد اغرق أحمد ، ثم اغرق ورده » .

كادت أن تصرخ ، ان تقول ذلك لطه ، ان تستدير اليه ، ليعود بها « سيرفض . رأسه حجر » .

ابطأت من سيرها المسرع

« انهما يعتديان على دنيا المارد ، الليل دنياه ، والارض في الليل ، أرضه ، وبيته »

توقفت تماما .

ـ طه . انا خائفة .

ـ أنا معك . لا تخافي .

لم تره بعد ، ذلك المارد ، لكنها تحسب أنها ستراه في أية لحظة

ـ مم تخافين ؟

ـ المارد .

أمسك بها . دفعها امامه برفق .

ـ أنا معك

عادت تسير مرتعدة .

ـ حدثني .

ـ اقترب البيت .

رأته في الظلمة ، كتلة صغيرة من الليل .

ـ الكلب لا يخاف . انظري اليه . لو كان هناك ما يخيف ، لنبح الكلب .

ـ الكلب يخاف .

ـ . . . . .

ـ الحيوان .. يعرف ذلك ؟ يراه ؟

ـ مرفوع عنه الحجاب .

ـ كيف ؟

ـ يرى ما لا نرى .

ـ . . . . .

ـ لكنني رأيته .

ـ الحصان ايضا يحس بذلك ، حين يقترب من الخطر ، بل يحس به من البعد . يتوقف ، ويرفض السير براكبه .

ـ يحس بالشر الرابض في قلب الليل . اني خائفة .

ـ الكلب معنا ينذرنا ، اقرئي آية الكرسي ، أنت تحفظينها ، اقرئيها ، فقط ، ليطمئن قلبك .

ـ حين أقرأها ، أخاف . يزداد خوفي ، حتى في النهار .

« تخافين من الله ؟ » .

« من الله ، والموت ، والنار ، والماء » .

« مم تخافين ؟ الليل هو الليل ، الارض هي الارض ، في القرية ، او في المزارع ، أليس كذلك ؟ مم تخافين ؟ الموت يأتي الناس في القرية ، ويأتي الناس في المزارع ، الخطر واحد اذا كان هناك خطر » .

صاحت به فجأة ، في ذعر :

ـ كفى

ـ . . . . .

ـ أنت خائف مثلي .

ـ وأنت معي .؟ لا .

ـ أنا .؟ هه .. فلنعد الى البلدة ، بيتنا هناك آمن ، وسط الناس .

ـ لا .

« لم ؟ »

« أنت تعرفين رأيي في أهل البلد ، في الناس ! »

« بعد ما حدث ؟ » .

« بعد ما حدث ! » .

« بعد أحمد ؟ » .

« بعد أحمد ! » .

« بعد ورده ؟ » .

« . . . . » .

« سكت ، تكلم » .

« طيب » .

« صحيح ؟ فلنعد » .

« في الصباح نتكلم » .

زفرت قائلة :

ـ اف !

ـ أنت تعرفين !

بلغا بيت وابور المياه ، نافذته ، في ضوء الفانوس ، مغلقة . بابه مغلق . فتحته الاخرى ملتصقة بحوض المياه الكبير ، بدا لهما المكان معتما . شديد العتمة ، والغموض ، مسربلا بالرعب .

« هنا يسكن المارد ، في ذلك الحوض ، في تلك الفتحة ، في هذه الحجرة » .

توقفت ، تخشبت ، قالت بصوت متصلب ، متصالب :

ـ امسك بي .

خطا الخطوة الباقية اليها ، أمسك بها ، همس مشيرا الى البناء:

ـ لا تخافي ، حجرة . وابور في الحجرة . حوض . مياه .

ـ أمسك بي جيدا .

ـ تفيده ؟

ـ دعنا نقترب من الحوض .

ـ ماذا حدث ؟ كنت خائفة .

ـ اقترب بي من الحوض . امسك بي جيدا .

شد بيديه على ساعديها ، لا بد أن يحقق لها مشيئتها . تتلفض في يديه ، وقفت عند الحوض ، اطلت في مياهه الساكنة ، العميقة ، المعتمة ، في جداره الحجري المسفلت ، الاصم ، المرعب ، استدارت مع دائرة الحوض ، تجاه المجرى ، سارا معا على الجسر الواسع للحوض ، عند الزاوية ، يلتقى الحوض بالمجرى ، توقفت ثانية ، قفز الكلب في تلك اللحظة ، فوق جدار المجرى ، اقترب من الحوض ، متصالبا ، قفزت سمكة ، في ضوء الفانوس ، عبر مياه الحوض ، وغاصت في مياه المجرى ، نبح الكلب بشدة ، هجم كأنه سيقفز . لكنه لم يفعل . راقبته . قدرت انها ستعرف منه ما حدث . تقدمته سيقانه الاربع ، وجسمه يتراجع ، وفمه ينبح .

« الكلب يسب الحوض ، والماء » .

« لعله يرى الخطر الذي في قلبه » .

ـ المارد يسكن هنا . ربما كان تلك السمكة التي قفزت .

ـ تذكري خيرا ، هيا بنا .

ظلت واقفة ، ولم يبذل جهدا ليسير بها .

ـ ما دمت خائفة من .. منه ، فلم تقفين ؟

ـ انا خائفة حتى الموت ، لكنني أريد ان ابقى لحظة .

ـ تفيده ؟ هيا بنا . انت تخيفينني .

ظلت واقفة ، تخايل لها ما حدث لورده . قفزت السمكة ، ربما ذات السمكة ، قفز الكلب ، ونبح السمكة . (رفعت الفانوس في يدها ذات الحجر الذي وضعته وردة ، الى جوار المجرى ، لترى الماء تجري في المجرى ، من الحوض ، الى الارض) . صعدت فوق الحجر، ونظرت ، حركت الفانوس ، أخذت السمكة تتقافز في الضوء ، حتى نهاية المجرى . أغراها ضوء الفانوس ، فعادت تقفز للنور ، صعدت ورده فوق المجرى . سارت فوقه . تبعت السمكة الى الحوض ، بلغت الزاوية التي ينفرج عندها جدار المجرى في الحوض . هنا . في ذات اللحظة . خاف الكلب عليها . فنبح محذرا من ورائها ، خطت في الهواء (يا الهي خطوة .

زعقت :

ـ ورده !

« في الصباح » .

« انفقنا ؟ » .

ـ تفيده !

ـ همس .

سقطت بالفانوس في الحوض ، ما يزال غارقا هناك ، في قاع الحوض ، منطفئا ، تعمر ورده ، نفطه سرب من فتيلته ، ما تزال دوائره تلمع فوق الماء ، في ضوء الفانوس . قفز الكلب وراءها ، وهو ينبح ، كلما قبت وصرخت مستنجدة . يمسك بها . تغوص منه ، فيتركها برغمه .

« كان الباب مغلقا ، سمعت صراخها » .

« لم أسمعه أنا » .

« سخرت مني » .

« كنت أبعد الشر » .

« صحت : الكلب ينبح . يعوي كالذئب » .

« انخلع قلبي رعبا . رحت اعدو » .

« تبعتك . نسيت المارد ، والليل » .

« قابلني الكلب » .

« رابته » .

« ارتد أمامنا ينبح في رعب » .

« كانت الدنيا ظلاما ، والليل باردا »

« قفزت بثيابي الشاتية في الحوض ، يداها كانتا فوق الماء ، تقبضان على فراغ ، تنسحب داخله ببطء ، وصمت » .

« صرخت » .

« صرخت معك . غصت وراءها . واتاها الاجل » .

« فارقها السر » .

خرجت من صمتها . زفرت ، وقالت :

ـ هيا بنا .

خرج من صمته ، زفر ، وقال :

ـ هيا بنا .

استدارت ، وسارت معه . تبعهما الكلب الى البيت . وعاد يدور بينهما حديث الصمت :

« أريد أن ناتي بأولاد ! »

« سناتي بأولاد » .

« بنت نسميها وردة ! » .

« بنت نسميها ورده ؟ » .

« وولد نسميه أحمد ! » .

« وولد نسميه أحمد . » .

« سنقدر ؟ » .

« سنفعل . » .

« كيف ؟ بعد ما حدث ؟ » .

« بعد ما حدث . » .

« لم نكبر بعد ؟ هه ؟ » .

« لم نكبر بعد ، ظهري ما زال قويا ، وصلبي ما زال عامرا » .

« انا ما ازال صغيرة ! » .

« وقادرة على الحمل » .

« ونربيهم ؟ » .

« ونربيهم ! » .

« ونحافظ عليهم ؟ »

« بعيوننا ! »

صاحت به فجاة ، والبيت يقترب ، تخفق كتلة ظلاله بوهن :

ـ والمارد ؟
ـ لا مارد هناك .
ـ انا رايته . أنت تكابر . هو الذي قتلها .
ـ ما حدث كان أجلا .
ـ الاجل لا يأتي وحده ، هناك سبب .
ـ لا تكفري . السبب هو الله . اجيبي : ومن يموت على فراشه ؟
ـ بالمرض !
ـ أعوذ بالله . استغفري يا امراة .

اجتازا الجسر . وصعدا في الارض السبخة ، دفع المفتاح في ثقب الباب ، واداره . دفع الباب ، ونزع المفتاح . ربض الكلب عند العتبة دخلت البيت ، ورد الباب وراءه .

ـ اغلقه .

أغلق الباب من الداخل ، بالرتاج ، ثم بالمفتاح ، وتركه في ثقبه اضاءت المصباح من الفانوس ، وأطفأته . نزعت حذاءها ، وصعدت الى السرير ، وجلست . نزع حذاءه ، وجلس بجوارها . طال الصمت .

ـ الضوء ضعيف .
ـ والهواء خانق .
ـ أفتح النافذة ؟
ـ لا .
« ما الفائدة ؟ ضوء البيت ، وهواؤه ، ترقد هناك ، بلا ضوء ، ولا هواء » .

طبع بسمة مواسية على وجهه . وقال :
ـ البركه فيك .
قالت :
ـ طه . في الصباح ، ساعود الى البلدة ، ولن ارجع هنا .
ـ وانا ؟
ـ ابق كما تحب . مع المارد ، والموت ، والليل الموحش .
« اين ستقيمين ؟ عند أهلك ؟ » .
« لم اعد من أهلي . تزوجتك ، وانتهى الامر » .
« الا تحبينني ؟ » .
« احبك . لكن . صفعت بك . رأسك حجر ! » .
« . . . . » .
« ساقيم في بيتنا بالبلدة . تعال . وقتما تحب ، واذهب حين تريد » .
« مجنونة » .
« هه ! انا ؟ » .
« انت تعرفين ؟ » .
« ما الذي أعرفه ؟ قل » .
« العمده يعتبرني هنا ، حارسا لارضه ، وللوابور » .
« وللمارد ، وللموت ؟ هه ! » .
« أنت تخرفين ! » .
« واجرك ؟ أجرك على هذه الحراسة ؟ تكلم » .
« انني أروي أرضي بالراحة ، بدون ثمن » .
« يوم يروي العمده !! » .
« . . . . . » .
« وموت ولديك ؟ أحمد ؟ ثم ورده ؟ ما أجرهما ؟ »

طال بينهما الصمت . راحت تحرق البيت ، هذا البيت ، تسكب النفط في كل زواياه . تشعل النار . تتذكر قناة الماء التي تحيط بالبيت . الجسر الوحيد الذي فوقها . أوقفت النار بايماءة ، أمسكت بالفأس واخذت تردم القناة . أهالت فوقها الجسر ، والحواف، وجوانب تل البيت ، أتمت كل شيء في لحظة . أشارت الى النار فاندلعت في البيت . ستبقى الجدران الطينية قائمة ، بعد اخشاب السقف ، والنوافذ ، والباب . النار لا تكفي . سحبت التل من تحت الجدران . فانهار ، وما يزال يحترق ، سيأتي طه الى الارض ، لا بد ان تبقى الارض ، ولا يجد سقفا يظله في النهار ، ويحميه في الليل ، أشارت الى النار فتوقفت ، والى الجدران فانتصبت واقفة ، رأت البيت جزيرة ، يحيط بها البحر . لا يحمي البحر من الموت ، لا تنجي الجزيرة من الحزن ، والخوف ، والوحشة ، تضاءل البحر وصار قناة اخذ بردمها بألف يد ، بألف فأس ، يدمر وابور المياه ، والحوض ، والمجرى ، تجدب الارض وتقفر ، نفضا الصمت ، صاحا في ذات اللحظة :

ـ لن أعود الى البلدة .
ـ فلنعد الى البلدة .

اصطدمت كلماتهما ، وارتطمت ، وارتمت ميتة . لاذا بالصمت زافرين ، يبقى البيت قائما ، سجنا ، يحوله في لحظة الى حظيرة ، للحمار والبقرة . تأتي اليه في النهار بغدائه ، وتجلس معه تأكل في ظله ، يحمل المرتبة ، واخشاب السرير ، تجمع تفيده الملابس في صرّه ، وتمشي خلفه ، يضحك الكل عليه ، يمصمصون بشفاههم : « الناس ونس » .

رنا الوليف الى وليفه ، وجهها تجعد ، يطفر حزنا والما ، وجهه شاخ ، امتلأ سأما ويأسا . تنهدت ، تمددت ، أغطته ظهرها ، خافت من ضوء المصباح . تنهد ، تمدد ، أراح ظهره ، تدفقت في اذنيها أصوات الليل وارتفعت كالموج . أصوات المارد ، ينبحها الكلب ، برتابة، وضعف ، انفاسها تنتظم ، بدا له انها نامت ، تضخمت اصوات الليل، استحالت في لحظة ، الى ضحكة ، ضحكات متداخلة ، هائلة ، تراجعت بظهرها اليه محتمية ، ومرتعدة .

ـ أتسمع ؟
ـ ماذا ؟ آه .. أصوات الليل .
ـ المارد يضحك .
ـ نامي .
« وآخرتها ؟ » .
« شر الناس كثير » .
« أنت منهم »
« يحسدون ويشتمون في المصيبة » .
« وأنت ؟ هل أنت خير منهم ، رأيتك تحسد ، وتشمت » .
« لست بحاجة اليهم » .
« أنك واحد ، وهم كثرة » .
« خيري . يكفي شري » .
« حقا ؟ وحين ماتت ورده . من مد يده لعونك ؟

بضع كلمات للحديث عن فراس

ينهلّ صوتك والاغاني مطفأه
والعابرون تأخروا
فالدرب ملغوم ، وخلف الباب موت
قالت لهم ريح البلاد : ألا احذروا
فتعثروا
والصمت شارك في سيول الدم ،
أعرف أن تحت الظل كان الآخرون
يدخنون
ويرقبون
في نشرة الاخبار ــ مع زوجاتهم ــ موتي
وهم يتسامرون .
ينهلّ صوتك والنساء لبسن أثواب الحداد
وانا خبرت من الزمان المر هذا أسوأه
هلكت جمال قبيلتي
لم يسأل الوالي (١)
ومزق جنده كتبي ، وأنت تسائلين !
عن سر هذا الحزن في عينيّ .
عن شعري المشعث ، عن مشاوير المساء
والحارس الليلي أيضا ،
لا يكف عن السؤال .

صمت يرافقني ،
شوارع ذلك البلد البعيد معي ،
وليس بهذه الطرقات من أحد .
وأنا اضم فراس ..
(آه فراس يأكل قلبنا هذا البعاد
ويعيد لي حزني الجميل ،
وزهرة الحلم المهاجر والبكاء)
وتعاتبين ، وأنت لا تدرين ما يفري الفؤاد
هذا شتاء آخر قد فاجأه
ينهلّ صوتك ، والاغاني مطفأه

محمد القيسي

---

(١) أثر عن عمر بن الخطاب انه قال :« لو هلك جمـــل بشط العرب ضياعا لخشيت أن يسألني الله عنه . » وفي عمـان لم يهلك الا عشرون ألف فلسطيني فقط أيها الشعراء !

سمع صوت ورده :

ــ أبي . عد الى البلدة .

أوشك ان يقول لها ما يسمع ، خجل ، ستتمسك بها ، وهي لم تسمع ، بل لعلها سمعت .

ــ أتسمعين ؟

ــ ماذا ؟ من ؟ المارد ؟ هل سمعته ؟

ــ لا . لا تخافي . لا شيء .

استدار نحوها . أحاطها بساعده ، فنفضتها عنها ، وابتعدت ، تضاحك بأقل قدر ممكن ، ينبغي أن يظل الاب على حزنه .

ــ لا تغضبي . سأنهض ، وأحمل ما في البيت ، الى بيتنا القديم.

ــ والناس ؟

وجم ، تمنى لو لم تقل ذلك . ابتلع غصة ، وقال :

ــ ما شأني بهم . نعود من بيتنا الى بيتنا .

دافع الفرح في نفسها الحزن . وعلا الموج . راحت تفتح النوافذ تهب التراب من على الجدران . تمحو خيوط العنكبوت . تجلس مـع الجارات ، تنقـي الحصى من الارز ، تعد الغداء لطه حيـن يعـود مـن الارض ، غلبها الفرح ، ووجهها متجهم ، حزينا ما يزال ، استدارت اليه . لفحته أنفاسها .

« ماذا تريد ؟ » .

أحاطته بساعديها ، وساقيها ، ودست ثدييها في صدره . نبح الكلب . قال :

ــ هيا بنا .

ــ في الصباح . سنفعل .

تدافع الدفء بينهما ، وفوقهما ، حتى غمرهما ، كمياه النهر ، وفيظ الظهيره ، وسرت في جسدها رعشة ، غارت منها . توشك ، لولا الحزن ، وطه ، وجلال الموت ، أن تضحك . وراحت أنفاسها تعلو وتهبط . وسمعت بجوارها صوت وردة ، تتظاهر بالنوم ، تتنفس .

(القاهرة) **سليمان فياض**